المرجع بين السياق والنسق النصي: استراتيجية لبناء الأفق

الدكتور عمران سعيد ميغا
مختبر البحث حول العالم العربي والإسلامي، بماكو مالي
E-mail: imiranam@gmail.com- Cell:+2237660164

الملخص:

لقد انقسمت المناهج النقدية إلى مناهج سياقية ومناهج نسقية حسب المرجع المعتمد في قراءة النص الأدبي، فما اعتمد فيها على سياقه الخارجي، سمي سياقيا (التاريخي والاجتماعي والنفسي)، وما كان الاعتماد فيه على السياق النسقي اللغوي سمي نسقيا، فالمناهج السياقية هي تلك المناهج التي تعنى بالسياقات الخارجية للنص وتعطيها أهمية في فهم النص، إضافة إلى الآثار النفسية التي كان لها انطباعُها على ما ينتجه الأديب، في حين اهتمت المناهج النسقية بالسياق اللغوي انطلاقا من الثورة العلمية التي أحدثته علم اللسانيات على العلوم الإنسانية في الفكر المعاصر، مما أدى إلى إيجاد مناهج مثل الشكلانية والبنيوية وغيرها من المناهج التي أعطت أهمية للبنية النصية، وبحث في فنيته من بين عناصره اللغوية دون الالتفات إلى السياقات الخارجية أو الجو الذي في ظله صدر النص. ولقد أصبح هذا المرج إشكالية بين النقاد، وهو من الأهمية في مكان لا يمكن فهم النص الأدبي وقراءته إلا بالاعتماد عليه، فتساءلوا عن إمكانية تحديد مواقع المرجعيات بين الثقافة والمقام والقرانات اللغوية؛ ولذا أراد الباحث أن تكون هذه الورقة مخصصة له، تجمع عناصره وتحاول الإحاطة بالفكرة العامة حوله، مع بيان بعض المصطلحات النقدية التي قد تتشابه معه في النقد الأدبي.

مع العلم أن هناك منهجا تكامليا يجمع بين المناهج في قراءة النص الإبداعي: فالمنهج التكاملي في النقد الأدبي هو أسلوب نقدي يعتمد على الدمج بين عدة مناهج ونظريات نقدية مختلفة لتحليل النص الأدبي بشكل شامل ومتعدد الأبعاد. ويهدف هذا المنهج إلى تجاوز قيود المنهج الواحد من خلال استخدام أدوات وأساليب من مناهج متعددة، مما يساعد على فهم أعمق للنصوص الأدبية بكل ما تحمله من معانٍ ودلالات اجتماعية ونفسية وتاريخية وجمالية. ولكن توجه الباحث في هذه الورقة إلى المرجع بالتحديد ومناقشة إشكالياته دون المناهج النقدية التي ما أكثرها ومتوفرة في مظانها.

الكلمات المفتاحية: المرجع –السياق –النسق النصي–استراتيجية –بناء الأفق.

Résumé :

Les approches critiques se divisent en deux catégories principales : les approches **contextuelles** et les approches **structurales**, en fonction du référent utilisé pour lire un texte littéraire. Les premières, qui s'appuient sur le contexte externe (historique, social, ou psychologique), sont dites contextuelles. Les secondes, axées sur le contexte interne ou linguistique, sont appelées structurales.

Les approches contextuelles accordent une grande importance aux influences externes sur le texte, y compris les impressions psychologiques qui marquent les productions de l'auteur. En revanche,

les approches structurales se concentrent sur le contexte linguistique, inspirées par la révolution scientifique apportée par la linguistique aux sciences humaines dans la pensée contemporaine. Ces approches, comme le formalisme et le structuralisme, mettent en avant la structure du texte et analysent sa dimension esthétique en s'appuyant sur ses éléments linguistiques, sans prendre en compte les contextes externes ou les circonstances de sa création.

Cette distinction a engendré un débat entre les critiques, car ces référents occupent une place centrale dans la compréhension et l'interprétation des textes littéraires. Une question essentielle se pose : comment situer les référents entre la culture, le contexte et les connexions linguistiques ?

L'objectif de cette étude est de consacrer cette réflexion à la notion de **référent** en rassemblant ses éléments, en offrant une vision globale de cette idée, et en clarifiant certains concepts critiques qui peuvent lui être associés. Bien qu'il existe une méthode intégrative en critique littéraire — une approche combinant divers outils et théories pour une analyse multidimensionnelle des textes — cette recherche se concentre exclusivement sur le référent et ses problématiques, en laissant de côté la diversité des approches critiques déjà bien documentées.

Mots-clés : Référent – Contexte – Structure textuelle – Stratégie – Construction de l'horizon.

المقدمة

إن عملية الكتابة عملية معقدة[1]؛ إذ تتطلب العملية إيصال فكرة ما إلى شخص ما مستندا إلى ملابسات معقدة قد لا تتبين للطرف الآخر بسهولة؛ بحيث يلزم وجود قاسم مشترك بين الطرفين المتمثلين في الكاتب والقارئ يَضمنُ سلامة وصول الرسالة المتمثلة في النص الأدبي كما أراد بها الكاتب، وهذا القاسم المشترك بينهما يُعرف في نظرية الأدب بالمرجع؛ ذلك ما نريد من خلال هذه الأسطر أن نبيّنه قدر المستطاع انطلاقا مما كتب عنه ومستعينا بما تكوّن لدينا من مفاهيم حوله.

والمناهج النقدية المعاصرة انقسمت من حيث العناية بقراءة النص الأدبي إلى مناهج سياقية خارجية، ومناهج نسقية نصية[2]، فالمناهج السياقية هي تلك المناهج التي تعنى بالسياقات الخارجية للنص وتعطيها أهمية في فهم النص

[1] يقول بول ريكور عن هذه القضية المعقدة: "إن العبور من الكلام إلى الكتابة يضر بالخطاب بطرق أخرى عديدة، منها على الخصوص أن عملية المرجعية يفسد بعمق عند ما يستحيل إبراز الشيء الذي نتكلم عنه كمنتم إلى الحالة المشتركة للمتحاورين" ثم يثير هذه الإشكالية بتمعن حين يقول: "ما ذا ستصبح المرجعية عندما يصبح الخطاب نصا؟ ويجيب: ها هنا تشوّهُ الكتابة، بالأخص بنيةُ الأثر الأدبي، المرجعيّةَ إلى درجة تصييرها إشكالية تماما. في الخطاب الشفوي، تنحل المشكلة أخيرا في وظيفة الخطاب المبيّنة؛ بعبارة أخرى تنحل المرجعية في قدرة إبراز الواقع الجامع بين المتحاورين؛ أو إذا لم نستطع إبراز الشيء الذي نتكلم عنه، فعلى الأقل يمكن أن نحدد موقعه داخل الشبكة الفضائية – الزمنية التي ينتمي إليها المتحاوران بدورهما؛ فال(هنا) وال(آن) هما من يقدم في النهاية المرجع الختامي لكل خطاب، ومع الكتابة تبدأ الأشياء في التغير؛ لم يعد ثمة وضع مشترك بين الكاتب والقارئ؛ وفي نفس الوقت، تنتفي العلاقات الملموسة لفعل الإبراز. وهذا الإلغاء للخاصية التوضيحية والتبيينية المتعلقة بالمرجعية، هو بلا ريب ما يجعل الظاهرة التي نسميها (أدبا) ممكنة، الظاهرة التي يمكن فيها لكل مرجعية أن تبطل. لكن هذا الإلغاء لم يُقد جوهريا إلى حالاته الأقصى، إلا مع ظهور بعض الأنواع الأدبية، المرتبطة عموما بالكتابة، وليست تابعة بالضرورة إليها". ينظر: ريكور، بول: من النص إلى الفعل، ترجمة: محمد برادة، وحسان بورقية، الطبعة الأولى: 2001م، الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة–مصرة. ص86–87. أوردت هذا النص لبيان مدى إشكالية المرجع الذي نحن بصدد الخوض فيه.

[2] ينظر: حمد، عبد الله خضر: مناهج النقد الأدبي: السياقية والنسقية، (د. ت. ط) دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان. ص10.

وإمكانية تحليله تحليلا فنيا، إضافة إلى الآثار النفسية التي كان لها وسمُها على ما تصدر من أعمال فنية، في حين اهتمت المناهج النسقية بالسياق اللغوي انطلاق من الثورة العلمية التي أحدثته علم اللسانيات على العلوم الإنسانية في الفكر المعاصر، مما أدى إلى إيجاد مناهج مثل الشكلانية والبنيوية وغيرها من المناهج التي أعطت أهمية للنص، وبحث فنيته من بين عناصره اللغوية دون الالتفات إلى السياقات الخارجية أو الجو الذي في ظله صدر النص. ولقد أصبح هذا المرجع إشكالية بين النقاد، وهو من الأهمية في مكان لا يمكن فهم النص الأدبي وقراءته إلا بالاعتماد عليه؛ ولذا أراد الباحث أن تكون هذه الورقة مخصصة له، تجمع عناصره وتحاول الإحاطة بالفكرة العامة حوله.

ووضعت خطاطة –كما هو المعروف في العملية البحثية– تتمثل في المحاور الآتية:

في المحور الأول في مفهوم المرجع في النقد الأدبي، من خلال هذه التساؤلات: ما المرجع؟ وما أهميته؟

وفي المحور الثاني نورد أقسام المرجع من جهتين: السياقي والنسقي.

وفي المحور الثالث محاولة المقاربة بين مصطلح المرجع وبين بعض المصطلحات التي تتشابه مع المرجع في الوظيفة، مثل الواقع والإحالة والسياق والمقام.

المحور الأول: مفهوم المرجع في النقد الأدبي:

إن المرجع في النقد الأدبي يقصد به نقطة التواصل بين المؤلف والقارئ، ومستندا يعتمده المتلقي لإدراك ما عند غيره من المفاهيم والمقاصد. ويعني أيضا مجمل عناصر الواقع الخارجي التي يحيل إليها النص، تتميز هذه العناصر بطبيعتها المتنوعة؛ إذ ترجع إلى كلِّ موجودات الواقع الخارجي من الملامح والانفعالات... وإن كانت هذه العناصر توجد خارج النص، فإنها تتمظهر في النص في صورة علامات نصية. ويتنوع المرجع حسب المجال الذي يصدر منه النص الفني إما اجتماعيا، أو تاريخيا، أو عرفيا، أو من مجال فني، بحيث يمكن مواكبة الإدراك الحسي للمرجع إليه كلما كان مجال التجربة واحدا، فعالما نبات يعطيان مدلولا واحدا لكلمة (منسوجات شجرة الموز= Abaca)، أما إذا كان مجال التجربة مختلفا فسيحدث حينئذ ربط خاطئ في المرجَع إليه أو لا يحصل ربط البتة: كيف يمكن إفهام من لا يعرف شيئا عن الكنيسة معنى كلمة شماس[3]؟[4].

وهذا ما يدل على أنه القاسم المشترك بين قطبي التواصل اللذين يتمثلان في المؤلف والقارئ، يبني عليه المتلقي ما يعقده من العلاقة بينه وبين النص المراد فهم محتواه، فهو عنصر أساسي للتفاهم بين أطراف العمل الأدبي؛

[3] هو خادم الكنيسة وهو من يقوم بمعاونة الكاهن في أداء الخدمات الدينية والصلوات الكنسية، وهو الرتبة الثالثة بعد القس وأسقف.

[4] ينظر: فابر، بول– وبايلون، كريستيان: مدخل إلى الألسنية مع تمارين تطبيقية، ترجمة طلال وهبة، ط1 1992م، المركز الثقافي العربي، بيروت. ص185.

لأن القارئ لم يكن ليكتفي بالمؤلف لفهم ما كتب، ولا بالنص لأن يبلِّغه ما يحمله في طياته من معان، إنما يتمكَّن من ذلك كلِّه من خلال المرجع[5]. وقد ذكر (فلولف غانغ أيزر)[6] شروطا وضعها (أوستين)[7] لفهم النص، وهي:

- أن يجمع بين المؤلف والمتلقي عرف مشترك.
- أن يكون المقروء عنه من الثوابت المتعارف عليها.
- استعداد كلّ من المؤلف والقارئ للمشاركة في فعل الكلام[8].

إذا أمعنا النظر في هذه الشروط الثلاثة فإننا نجدها جميعا مستوفاة في المرجع؛ إذ هو –كما أشرنا إليه من قبلُ – نقطة التماس بين طرفي عملية التواصل، منها ينطلق المؤلف في إنتاج النص والمتكلم في التواصل مع المتلقي، وإليها يرجع القارئ أو المستمع لفك رموز النص والرسالة المنتجة وفهم مكنونها. وإذا اعتبرنا أن التواصل ينتج من فهم المتلقي للنص لاشتماله على إشارات قد سبق للمتلقي التعرف عليها؛ لأنه شبيه باستعادة لما كان معروفا وثابتا في ذهن القارئ، وهل هذا التواصل يمكن أن ينتج جديدا؟ والنص الإبداعي بحاجة إلى القارئ النشط، الذي يتوصل إلى جديد من خلال قراءته، ويبحث عن المعاني الكامنة في النص الأدبي المفتوح[9]. وبتنوع التفسيرات من قبل المتلقي يستمر إظهار معانٍ جديدة للنص لم تكن قد اطلع عليها قبله. والنصّ في هذا كله يعتبر النقطة المتوسطة بين القديم والجديد المتأمَّل الارتقاء إليه، وهي منبع التواصل بينهما.

وبهذا ندرك أن المرجع إنما هو رصيد مكوَّن من الحيِّز المألوف داخل النص أو خارجه، ومعايير القارئ لسبره وتفكيكه قد تكون اجتماعية أو تاريخية أو من مجمل الثقافة التي منها نشأ النص من لدن المؤلف، إلا أن هذه المعايير تتفاوت بدرجة كبيرة في إثبات مكانها في الرصيد الثقافي؛ لأنها تخضع دائما للتحوّل أو التعديل بصورة من صور تنقّلها من وظيفتها الأصلية إلى الوظيفة الثانوية في سياق التواصل[10].

---

[5] ينظر: أيزر، فولفغانغ: فعل القراءة، نظرية في الاستجابة الجمالية، ترجمة: عبد الوهاب علوب، الطبعة الأولى 1999م، منشورات: لمجلس الاعلى للثقافة– القاهرة– مصر. ص 75.

[6] فولفغانغ أيزر (Wolfgang Iser) هو ناقد أدبي ألماني بارز، يُعتبر أحد مؤسسي نظرية التلقي وجماليات الاستقبال. وُلد في 22 يوليو 1926 وتوفي في 24 يناير 2007. ركزت أعماله على دور القارئ في عملية التفاعل مع النص الأدبي وكيفية تكوين المعنى من خلال هذا التفاعل.

[7] أوستين وارين (1899–1986) هو ناقد أدبي أمريكي، اشتهر بتطوير المنهج النقدي المعروف بـ"النقد السياقي" إلى جانب زميله **رينه ويليك** . كان وارين باحثًا مرموقًا في الأدب المقارن والنقد الأدبي، وعُرف بإسهاماته النظرية في دراسة الأدب وتطوير مناهج نقدية متعددة تستند إلى التحليل السياقي والتكامل بين الشكل والمضمون.

[8] ينظر: أيزر: فعل القراءة، نظرية في الاستجابة الجمالية، مرجع سابق، ص87.

[9] ينظر: حامد، ابن عقيل: عصر القارئ تطبيقات نقدية على التأويل، وعلى نظريات جمالية التلقي، الطبعة الأولى 2009م، الناشر: طوى للثقافة والنشر والإعلام، السعودية. ص:21.

[10] ينظر: أيزر: فعل القراءة، مرجع سابق، ص75–87

أهمية المرجع:

انطلاقا مما سبق تناولها يتأكد لنا أن للمرجع أهمية قصوى في الإنتاج الأدبي القولي والكتابي؛ وتظهر تلك الأهمية في أنّه عنصر ضروري لتوحيد مواقف التواصل، وتكوين أرضية التلاقي بين أطراف التواصل في بناء المعنى وتحقيق الهدف المقصود من الإنتاج الفني، وأنه السراج المنير للقارئ في ظلمات حروف النص، ولا يمكن له أن يحكم أو أن يتوصّل إلى جديد عبر هذا النص إلا إذا مهّد الطريق أمامه بمرجعيات مسبقة عن العالم الذي أنتج عنه هذا العمل الأدبي ليصنع بذلك بينه وبين الطرف الآخر جسر التواصل. فكثيرا ما أدّى عدم الإلمام بالمرجع إلى قبول أو إنكار ما يمليه المؤلف عن جهل أو عن تعصب أعمى، لكن الإلمام بالمرجع قد يتسنّى له أن يتقبل أو ينكر عن بينة[11]. فيبنى أحكامه وتحليلاته على براهن مستقاة من نسق النص، أو من السياقات الخارجية (المعايير الاجتماعية –التاريخية– الثقافية)، وهذه المعايير تخدم القراء بنوعيه؛ لأن القارئ باعتبار عصره: إما أن يعاصر النص المقروء، أو أن يكون ملاحقا له، بحيث ينتج عن العصر السابق له، فبواسطة المرجع يتوقف القارئ المعاصر على جوانب من الحياة المعاصرة التي لا قبل له برؤيتها في الحياة الجارية لولا العودة إلى المرجع. أما القارئ من الأجيال اللاحقة فمساعدة المرجع له تأتي عن طريق تمكينه من التفهم والاطلاع على وقائع لم يعرفها ولم يرها، وبالتالي معايشتها مع ذويها[12]. فهذه من الوظائف المهمة المستنتجة من هذه المعايير، ولكل معيار أهمية ووظيفة يقدمها للقارئ المستعين به.

رسم بيان عملية

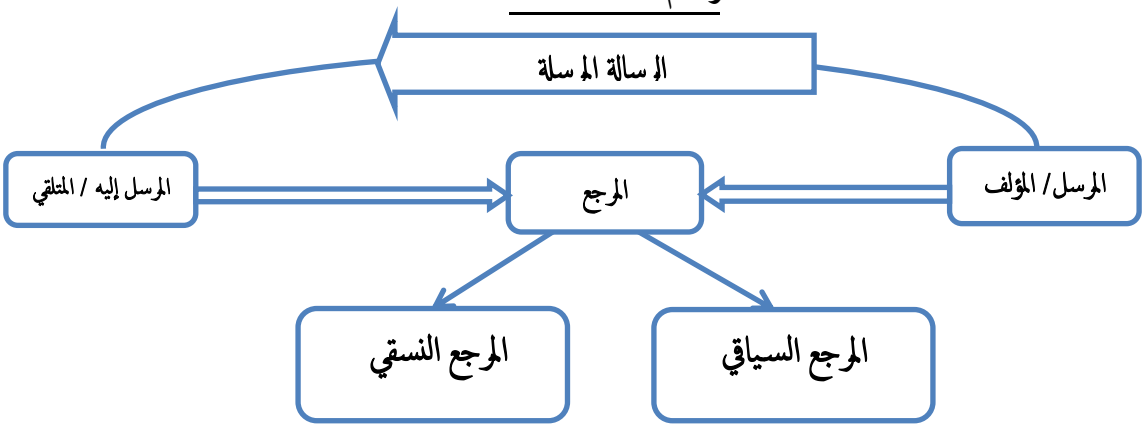

مفهوم الواقع الأدبي:

كثيرا ما نطلق الواقع ونريد به حقيقة الأمر الحادث، وهل للأدب ما يسمى بالواقع الأدبي؟

[11] ينظر: الطائع، الحداوي: النص والمفهوم، الطبعة الأولى 2010 م الناشر: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب. ص 16.

[12] ينظر: أيزر: فعل القراءة، مرجع سابق، ص:80.

ومن هذا الواقع يتم اختيار المعايير المرجعية للنص الأدبي. وإذا تأملنا هذه القضايا نرى أنه ليس هناك ما يسمى بالواقع و إنما هي مفاهيم و نماذج عن الواقع تتحول الاحتمالات والعقائد فيها إلى بنية ذات معنى وتطلق على هذه البنى (صورة) أو (أنساق) فكل حقبة من الزمن لها نسقها الفكري والاجتماعي[13]، و النص الأدبي يتخذ من هذه الأنساق السائدة كسياق له لإبراز المعاني السائدة في تلك المجتمعات، فعندما ينخرط القارئ في النص إنما ينخرط مع هذه الأنساق التي تتحول إلى مخزون فكري لديه، هذا المخزون الذي يلعب دور الخلفية المرجعية التي يمكن من خلالها تصور ومعالجة الشيء غير المألوف.

وعلى الرغم من موافقة النص الأدبي للنسق العام(الواقع) من حيث إنه ينبغي أن يعكسه، إلا أنه قد يختلف معه، في تأدية بعض المدلولات، بسبب الاحتمالات التي يحملها له القارئ النشط على حسب وجهة نظره لأنه ليس ملزما أن يرى ويؤول كما يرى كاتب النص أو كما يسوق إليه النص. ويسهل له ذلك بسبب المساعدة التي يحصل عليها من خلال الأنساق السائدة في العصر الذي تم إصدار العمل الأدبي فيه، ويعطي تصورا عنه[14].

المحور الثاني: أقسام المرجع

مما سبق نفهم أن المرجع الذي هو القاسم المشترك بين المؤلف والقارئ إما أن يكون منتزعا من الواقع خارج النص أو منتزعا من ملابساته وظروف إنتاجه، وهذا ما يرشدنا إلى أنه ينقسم إلى قسمين رئيسين هما:

أولا: **المرجع النسقي**: هو المرجع المعتمد على النسق النصي، ذلك أن المنهج النسقي منهج يعنى بقراءة النص نسقيا، أي داخليا؛ لأنه "لا يلتفت إلى مقصديّة الأثر الأدبي، ويلغي كل علاقة بين هذا الأثر والقيم الاجتماعية"[15]، وفي هذا الموقف فإن الواقع الذي يعود إليه القارئ لتلقي النص وفهم مقصدياته، ليس إلى خارج النص، بل إن النص الإبداعي، يخلق واقعه الخاص من خلال بنيته ونماذجه، حيث تصبح الحقيقة الأدبية مفهوماً يُبنى من قِبَل القارئ[16]، وليس انعكاسًا لواقع خارجي، وهذا ما يميزه عن المرجع السياقي.

[13] ينظر: فوكو، ميشيل: نظام الخطاب، ترجمة: د. محمد سبيلا، (د.ت.ط) دار التنوير، مصر- القاهرة. ص13.

[14] ينظر: أيزر: فعل القراءة، مرجع سابق، ص79.

[15] هيمة، عبد الحميد: النقد الشعري بين النقد السياقي والنقد النسقي: قراءة في إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، مجلة مقاليد: مجلة جامعية محكمة في الأدب واللغات تصدر عن جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد الثاني، ديسمبر 2011م. ص90.

[16] بارط، رولان: درس السيميولوجيا، ترجمة: بنعد العالي، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، الطبعة الثالثة: 1993م، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب. ص87.

ثانيا: **مرجع سياقي**: إن المناهج السياقية تهتم "بالعوامل المنتجة للعمل الأدبي (المؤلف–التاريخ–المجتمع)"[17]، فهو يستقي مرجعياته من هذه العناصر، تلك المرجعية التي تتشكل بإدراك المتلقي للسياقات الخارجية المؤثرة على المبدع حال إنتاجه الإبداعي.

فالمرجع السياقي: عبارة عن الأوضاع والحالات والقرانات والظروف التي ينتج فيها الأديب النص، أو هي تلك المؤثرات التي تحضر في ذهن القارئ وقت تلبسه بعملية التلقي، أو التي تدور حواليهما أثناء فعل الكلام، ففهم المراد والتأثر بالعمل الفني موقوف على فهم تلك الظروف والقرانات وإدراك ما يجري في حواليهما أو ما يظهر عليهما من الحالات النفسية والحركات الجسمية[18].

فعند التواصل بين المؤلف والقارئ عبر النص وبين المتكلم والسامع عبر فعل الكلام فإن هذا المرجع الثقافي يكون متمثلا في أذهانهما وقت الإنتاج ووقت التلقي؛ من أجل ذلك يتم التفاهم بينهما؛ لأن المنطلق والمقصد سواء، فلو حدث أي خلل أو اختلاف بينهما لاختلت عملية التواصل ولا يحصل هناك تفاهم. فمثلا نجد عالمي نبات يتمثّل في ذهنيهما مدلول واحد لكلمة نسيج شجرة الموز (Abaca) وذلك لاشتراكهما في المرجع الثقافي، وبالعكس لا يحصل هناك تفاهم، فكيف يمكن إفهام من لا يعرف شيئا عن الكنيسة معنى كلمة (شمَّاس) ؟.

وعلاقة السياق بالمرجع علاقة معقدة، إذ قد يمثل السياق بنفسه مرجعا وقد يشير إلى مرجع آخر، فهي علاقة نيابة وتبادل. وبالمثال يتضح المقال:

الطعام	سياق لغوي	يدل على شيء	دال	
ما يؤكل	مطعوم / مرجع	يدل عليه شيء	مدلول	علاقة دال بمدلول
الرز المطبوخ	مرجع	هو الشيء	مدلول	علاقة دال بمدلول
تحرك الفم مضغا (حال)	سياق حالي/ غير لغوي	يدل على شيء	دال	

من خلال هذا الجدول يتبين لنا أن العلاقة بين المرجع والسياق علاقة دال بمدلول أحيانا، وأن السياق قد ينوب عن المرجع أحيانا كما هو الحال في السياق المقامي.

[17] هيمة، عبد الحميد: النقد الشعري بين النقد السياقي والنقد النسقي، مرجع سابق، ص 87.

[18] ينظر: علوي، حافظ إسماعيلي: التداولية (علم استعمال اللغة)، ط1، 2011م، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن. ص 441.

فالسياق إما **لغوي** ويتمثل في العلامات اللغوية مثل كلمات النص المعجمية وألفاظ الإشارة والتعريف والمقارنة والضمائر والإعراب والرتبة وغيرها مما يزيل الغموض واللبس عن الكلام. أو **غير لغوي** أي المقامي، يتمثل في ملابسات الظرف المقامي والعالم الخارجي المتعلقة بالمرسل والمرسل إليه من حالات نفسية وحركات جسمية وغيرها مما هو موجود في المكان[19].

وأمثلة ذلك كثيرة منها : (رأى أخي صديقي في البهو) فالرتبة هي التي تزيل الغموض هنا فيبين الفاعل من المفعول به، والرتبة من عناصر السياق اللغوي. ومثله يقال في (رافق محمدا أخي إلى البطحاء) علم من الإعراب أن الفاعل هو (أخي) وإن كان متأخرا في الرتبة لفظا.

أما حصول الغرض من المنتج عبر السياق غير اللغوي (أي السياق المقامي) فمثاله صرف المخاطب وجهه عن المتكلم وانشغاله بأمر آخر دلالة على عدم اهتمامه بكلام محاوره وعدم احترامه له، ومثل قول الشاعر معروف الرصافي[20]:

يا قوم لا تتكلّمـوا إنّ الكـــلام محرّم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النـــوّم
ودعوا التفهُّم جانباً فالخير أن لا تفهموا
وتثبّتوا في جهلكم فالشرُّ أن تتعلّمـــوا
أما السياسة فاتركوا أبدا وإلاّ تَنْدمُـــوا
لا يستحقّ كرامــة إلاّ الأصــم الأبكم
وإذا ظُلمتم فأضحكوا طربا ولا تتظلّمـــوا

فالسياق المقامي هو المساعد على فهم مراد الشاعر رغم أن العبارات تُصدر أوامر، والأمر هو طلب إنجاز شيء ما من المخاطب، ولا يعقل أن يكون الشاعر آمرا قومه بالمعاني الحرفية في هذه الأبيات. إذ إن هذه القصيدة تُعتبر من القصائد الثورية التي تعبر عن رفض الظلم والاستبداد، وتحرض الناس على عدم السكوت عن حقوقهم وقبول الذل والهوان، وهذا المقصد يستفاد من المقام والجو الذي في أثره أنتج الشاعر قصيدته، والشاعر يستخدم السخرية والتهكم ليعبر عن استيائه من الوضع السياسي والاجتماعي، ويحث الناس على الاستيقاظ والمطالبة بحقوقهم.

[19] ينظر: الشيدي، فاطمة: المعنى خارج النص: أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوي- دمشق2011م. ص21.

[20] الرصافي، معروف: ديوان معروف الرصافي، مراجعة مصطفى الغلاييني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربية،2014م. ص649-650.

المحور الثالث: المرجع ومشتبهاته:

قد يلاحظ أن هناك تشابها بين مصطلح المرجع وبين مصطلحات أخرى في الوظيفة، لما بينها من علاقات وطيدة في عملية التواصل؛ فرأينا أنه من الأحسن أن نتناول تلك المصطلحات بشيء من التلميح لبيان ما بينها وبين المرجع من علاقة، عسى أن نكون قد ساهمنا في تقريب المفاهيم للقارئ. وهي ما يلي:

أولا: المرجع (le référent) والواقع (la réalité)

إذا سلمنا بأنّ للنص الأدبي مرجعا مشتركا بين مؤلفه ومتلقيه، وأن هذا المرجع يمثِّل واقعا للنص، فهل هذا الواقع حقيقي أم خيالي أي عالم مخلوق من خلال كلمات المؤلف؟ وما علاقته بالنص؟ وكيف يحقّق تمثّله؟

إنّ المبدع حين ينجز أعماله الإبداعية إنما يسعى إلى تقديم صورة عن واقع متمثل في ذهنه من خلال اللغة التي هي آلية الإبداع لديه، ذلك ما عبَّر عنه القدامى بقولهم إن الأدب محاكاة للواقع، بينما يرى المحدثون أصحاب النظرية السريالية[21] أنّ الواقع المتمثل أمام المؤلف ما هو إلا واقع خيالي، أي واقع قُدَّ من كلمات النص الأدبي، وقد يقرب أو يبعد من العالم الخارجي حسب قدرة المؤلف التصويرية له "فإن ما نحسبه إدراكا للشيء كما هو في الواقع إنما هو إدراك للشيء كما هو في اللغة"[22] لأن اللغة في هذا الموقف هي الوعاء الحاوي للمرجعيات الفكرية الخارجية "فتعيين المرجع إنما يقع على مستوى اللغة، وليس على مستوى المرجع ذاته، كما هو قائم في الوقع، وهذا أمر هام؛ لأن تشكل المعرفة يتواشج مع عناصر عقلية، ونفسية، واجتماعية، ووراثية، وتراثية، وثقافية، خبرات شخصية فردية لا حصر لها، تصهرها اللغة جميعا لتكوِّن بها رؤية الإنسان للعالم"[23].

إذا تأملنا هذه القضية نرى أنه ليس هناك واقع في الإبداع الأدبي، وإنما هو مفاهيم ونماذج عن الواقع فيه تتحول الاحتمالات والاعتقادات إلى بنية ذات معنى يطلق عليها اسم الصورة أو النسق، فلكل عصر نسقه الفكري والاجتماعي، والنص الأدبي يتّخذ ما ساد من هذه النُّسق سياقا له لإبراز المعاني السائدة في مجتمع ما[24]. ومع أنه ينبغي للنص الأدبي–حسب منظور النقد السياقي الذي يعطي أهمية للمؤلف– أن يعكس تلك النسق السائدة في عصر إنتاجه ويبرزها في تصويره الإبداعي، إلا أنه قد يختلف معها في تأدية بعض المدلولات، بسبب الاحتمالات التي يحمِّلها له القارئ؛ لأنه ليس ملزما أن يرى ويؤوِّل كما يرى المؤلف حسب منظور النقد النسقي الذي يعطي

---

[21] السريالية (Surréalisme) أو الفواقعية أي "فوق الواقع" وهي مذهب فرنسي حديث في الفن والأدب يهدف إلى التعبير عن العقل الباطن بصورة يعوزها النظام والمنطق. ينظر: يعقوب، إميل بديع– وعاصي، ميشال: المعجم المفصل في اللغة والأدب، ط1، أيلول (سبتمبر) 1997م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. 714/2.

[22] عياشي، منذر: الكتابة الثانية، وفاتحة المتعة، الطبعة الأولى: 1998م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب. ص59.

[23] عياشي، منذر: الكتابة الثانية، وفاتحة المتعة، المرجع نفسه. ص45–46.

[24] ينظر: أيزر: فعل القراءة، مرجع سابق، ص76.

أهمية للقارئ، ومن هنا يقول (رولان بارت): "إن النص يتألف من كتابات متعددة، تنحدر من ثقافات عديدة، تدخل في حوار مع بعضها البعض، وتتحاكى وتتعارض بيد أن هناك نقطة يجتمع عندها هذا التعدد، وليست هذه النقطة هي المؤلف، كما دأبنا على القول، وإنما هي القارئ: القارئ هو الفضاء الذي ترتسم فيه كل الاقتباسات التي تتألف منها الكتابة دون أن يضيع أيٌّ منها ويلحقه التلف...فالقارئ إنسان لا تاريخ له ولا حياة شخصية ولا نفسية، إنه ليس إلا ذاك الذي يجمع فيما بين الآثار التي تتألف منها الكتابة داخل نفس المجال"[25]، هذا ما يحدث الاختلافات في أوجه النظر بين القارئ والمؤلف حيث ينطلق القارئ من مصادر متعددة، ومن ضمنها عمل المؤلف.

وبهذا يمكن القول إن **العلاقة بين المرجع والواقع** هي علاقة ضمنية، أي أن وجود المرجع كائن في واقع ما أو سرياليا.

ثانيا: المرجع (le référent) والإحالة (la référence)

إن العلاقة التي تربط بين النص والمرجع تعرف بالإحالة أو الإشارة، وهي علاقة بين عنصر لغوي وآخر لغوي – في خطاب سابق أو لاحق– أو غير لغوي في الواقع أو في المتخيّل، بحيث يتوقف تفسير الأول على الثاني؛ ولذا فإن فهم عناصر الإحالة[26] التي يتضمنها نص ما يقتضي أن يبحث المخاطَب في مكان آخر داخل النص أو خارجه. ولابد أن نفرق بين الإحالة والإشارة التي هي من عناصر الإحالة، والعلاقة بينهما علاقة عام بخاص؛ إذ كل إشارة إحالة وليس كل إحالة إشارة. وأما **العلاقة بين المرجع والإحالة** فيمكن القول إنها علاقة إشارية؛ لأن الإحالة إشارة من النص إلى الواقع الخارجي الذي هو المرجع[27].

وتنقسم الإحالة إلى:

أولا: **إحالة مقامية**، تشير إلى خارج النص وتساهم في خلق النص؛ حيث تربط اللغة بسياق المقام، إلا أنها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر. وهو المقصود بالسياق، وسيأتي بيان ذلك لاحقا.

ثانيا: **إحالة نصية**، لها علاقة وثيقة بالداخل النصي، وتقوم بدور اتساق النص وترابطه تماسكا وانسجاما. وهي تنقسم بدورها إلى إحالة قبْلية تحيل إلى سابق ما مثل (ذلك، تلك، هو، هم، هن...)، وإحالة بعدية تحيل على لاحق ما مثل (يأتي يوم تنهض فيه الأمة الإسلامية على صوت رجل واحد، ذلك يوم منتظر وما هو على الله بعزيز). ترى في المثال الأول أسماء الإشارة وضمائر الغائب تشير إلى سابق ذكره، بيد ما نجد صيغة المضارع (يأتي، تنهض) واسم الإشارة (ذلك) في المثال الثاني تحيل إلى مستقبل لم يتحقق بعد.

---

[25] بارط، رولان: درس السيميولوجيا، مرجع سابق، ص87.

26 وهي الضمائر بأنواعها، وأسماء الإشارة، والتعريف بأل، والمقارنة...

[27] ينظر: علوي، حافظ إسماعيلي: التداولية (علم استعمال اللغة)، مرجع سابق، ص457.

ثالثا: المرجع (le référent) والسياق (le contexte)

يقصد بالسياق تلك القرانات – لغوية كانت أو غير لغوية– التي تصاحب الإنجاز الأدبي (القولي والكتابي) وتسهم في تجلية المقاصد والمفاهيم المرادة من النص الأدبي.

أما **علاقة السياق بالمرجع فقد أشرنا إليه سابقا بأنها علاقة تبادل ونيابة** كما سبق. فالحالات النفسية التي تصحب عملية التواصل والتي تظهر على كل من المؤلف والمخاطب هي المرجع بنفسها. وقد سبق بيان ذلك في حديثنا عن أقسام المرجع في المحور الثاني.

رابعا: المرجع (le référent) والمقام (la situation)

لقد جاء ذكر المقام في التراث العربي القديم في قولهم: ((لكل مقام مقال)) مبينا أنه يجب علينا أن نراعي ونختار المقام المناسب لما نريد قوله، وإلا ضاع المقصد الذي نرومه، فهذا دلالة على مراعاة كفاءة المتلقي والمخاطب وحالاته النفسية في المقام.

ومما يظهر لنا في هذا أنه لا فرق بين المقام والسياق سوى أن الأخير أعم من الأول؛ حيث يتعلق بالإنتاج القولي والكتابي معا، بينما المقام يتعلق بالقولي فقط. وأما العلاقة بين المرجع والمقام فهي طبيعة العلاقة بين المرجع والسياق، أي علاقة تبادلية، كما سبق ذكرها.

الخاتمة

يمكن تلخيص ما توصلنا إليه من خلال هذه المحاولة حول بيان مفهوم المرجع في النقد الأدبي فيما يلي:

- ✓ أن المرجع في القراءة النقدية يقصد به نقطة التواصل بين المؤلف والقارئ، أو بين المتكلم والمتلقي.
- ✓ أن للمرجع أهمية قصوى في الإنتاج الفني – ا لقولي والكتابي– وتلقيه؛ إذ هو المعتمد في الإفهام أو التفهّم. وعليه يعتمد القارئ في بناء أفق توقعه قبل الانخراط في قراءة النص.
- ✓ أن المرجع رغم كونه منتزعا من الواقع الخارجي فإنه لا يمثِّل الواقع الحقيقي؛ وإنما هو واقع قُدَّ من كلمات النص الأدبي، وقد يقرب أو يبعد من العالم الخارجي حسب قدرة المؤلف التصويرية له.
- ✓ أن المرجع ينقسم إلى نسقي يعتمد على النص وانسجامه الداخلي دون الالتفات إلى المؤثرات الخارجية المحيطة بالنص ومنتجه، وإلى سياقي ثقافي يتمثل في سلوكيات ترسم طريقة حياة مجتمع ما والطابع –الفكري والاجتماعي– العامّ الذي ينطبع عليه، وقد يتمثل السياق في ملابسات الوضع التواصلي وقت الإنتاج والتلقي مثل الحالات النفسية والحركات الجسمية والعلامات اللغوية.

✓ أن السياق يتنوع إلى سياق لغوي تمثله بعض العناصر اللغوية مثل أسماء الإشارة والضمائر، وإلى سياق غير لغوي يتمثل في ملابسات الظرف المقامي والعالم الخارجي المتعلقة بالمتكلم والمتلقي من حالات نفسية وحركات جسمية وغيرها مما هو موجود في المكان. وهو المعروف بالمقام.

✓ أن هناك تشابها بين المرجع وبين مصطلحات أخرى في الوظيفة، مثل الواقع (علاقة ضمنية)، والإحالة (علاقة إشارية)، والسياق (علاقة نيابية)، والمقام (علاقة تبادلية).

وبهذا قد أكملنا ما أردنا الإشارة إليه والتنبيه عنه، علَّه أن يضيف شيئا في الدرس النقدي، ويعين على إدراك مفاهيم ومعاني للنصوص التي نسعى في قراءتها وتحديد دلالاتها.

ثبت المراجع المعتمدة عليها في كتابة الورقة:

أيزر، فولفغانغ: **فعل القراءة، نظرية في الاستجابة الجمالية**، ترجمة: عبد الوهاب علوب، الطبعة الأولى 1999م، منشورات: لمجلس الاعلى للثقافة- القاهرة- مصر.

بارط، رولان: **درس السيميولوجيا**، ترجمة: بنعدالعالي، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، الطبعة الثالثة: 1993م، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب.

تودوروف-شاف-ستروسن-دوميت-فريجة-بيث-دافدسون : **المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث**، ترجمة وتعليق عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط2، 2000، المغرب، بيروت، لبنان.

حامد، ابن عقيل: **عصر القارئ تطبيقات نقدية على التأويل**، وعلى نظريات جمالية التلقي، الطبعة الأولى 2009م، دار طوى للثقافة والنشر والإعلام، السعودية.

حمد، عبد الله خضر: **مناهج النقد الأدبي: السياقية والنسقية**، (د. ت. ط) دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

الخضور، جمال الدين: **زمن النص**، الطبعةالأولى: 1995م، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سورية-دمشق.

الرصافي، معروف: **ديوان معروف الرصافي**، مراجعة مصطفى الغلاييني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، جمهورية مصر العربية،2014م.

ريكور، بول: **من النص إلى الفعل**، ترجمة: محمد برادة، وحسان بورقية، الطبعة الأولى:2001م، الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة-مصرة.

زريل، عدنان: **اللغة والدلالة، آراء ونظريات، دراسة**، منشورات كتاب العرب، دمشق، 1981م.

الشيدي، فاطمة: **المعنى خارج النص: أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب**، دار نينوي- دمشق2011م.

الطائع، الحداوي: **النص والمفهوم**، الطبعة الأولى 2010 م ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب.

علوي، حافظ إسماعيلي: **التداولية (علم استعمال اللغة)**، ط1، 2011م، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

عياشي، منذر: **الكتابة الثانية، وفاتحة المتعة**، الطبعة الأولى: 1998م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب.

فاير، بول – بايلون، كريستيان: **مدخل إلى الألسنية مع تمارين تطبيقية**، ترجمة طلال وهبة، ط1 1992م، المركز الثقافي العربي، بيروت-لبنان.

فوكو، ميشيل: **نظام الخطاب**، ترجمة: د. محمد سبيلا، (د.ت.ط) دار التنوير، مصر- القاهرة.

مبارك، مبارك: **معجم المصطلحات الألسنية فرنسي انكليزي عربي**، ط1، 1995م، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان.

محمد، محمد سعد: **في علم الدلالة**، كلية التربية، بور سعيد، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة جمهورية مصر العربية.

معجم مصطلحات علم اللغة الحديثة عربي– انكليزي وانكليزي–عربي، مكتبة لبنان، نخبة من اللغويين العرب: محمد حسن باكلّا(السعودية)، محي الدين خليل الريح (السودان)، جورج نعمة سعد(أمريكا)، محمود إسماعيل صيني(السعوية)، علي القاسمي(العراق).

هيمة، عبد الحميد: **النقد الشعري بين النقد السياقي والنقد النسقي: قراءة في إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر**، مجلة مقاليد: مجلة جامعية محكمة في الأدب واللغات تصدر عن جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد الثاني، ديسمبر 2011م.

يعقوب، إميل بديع– وعاصي، ميشال: **المعجم المفصل في اللغة والأدب**، ط1، أيلول (سبتمبر) 1997م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.